تهجرك حالما تعلم بوجود إمرأة أخرى، مهما تكن الأعذار، أما أنا ففعلت العكس... عدت إليك».

إن هاتين المرأتين لا تتحدّثان بصيغة المتكلم، بل بلسان وليد الذي يمارس حلم يقظة، جعل من نسائه أدوات مسلوبة الإرادة، بلا عالم داخلي، مجرد صور جسدية يمارس أمامها وليد حلم يقظته.

حلم اليقظة والفن

هل يمكن لحلم اليقظة أن يصبح فناً؟

علينا، في البداية، أن نحدّد من هو الذي يحلم: هل هو المؤلّف، أم إحدى شخصياته؟

كان أندريه، في رواية الحرب والسلام، يحلم، حين التحق بالجيش، أن يصبح نابليون آخر. أما تولستوي، مؤلّف الرواية، فقد أظهر لنا، ببراعة فائقة، سذاجة حلم أندريه وعدم واقعيته.

ويكثر تشيكوف من إستعمال أحلام اليقظة في قصصه ورواياته ومسرحياته. ولكن تشيكوف ينفذ من خلال هذه الأحلام إلى التكوين النفسي، الآمال، والآلام، والمطامح لشخصياته.

وهكذا نستطيع القول، أن حلم اليقظة يمكن إستعماله فنياً، ولكن شريطه أن ينفذ الفنان إلى ما وراء حلم اليقظة.

أما عندما يكون المؤلّف ذاته هو الحالم، فإن المسألة تصبح مختلفة تماماً. إننا نواجه تغييراً أساسياً في طبيعة العمل الفني، وفي وظيفته.

الفن هو أهم وسيلة للمعرفة الإنسانية. إنه يعيد بناء الواقع حتى يتيح لمتلقّي الفن أن يدرك واقعه بعمق. أما حلم اليقظة، فهو لحظة يلغي فيها الإنسان وعيه، ويستعير وعي الطفل. إنه يجعل الحالم يقفز من فوق الواقع، ويعيد تكوينه بمعطيات طفل.

إن خير مثال على تحوّل حلم اليقظة إلى (فن) هو الإعلان. الإعلان الناجح هو ذاك الذي نتلقّاه ونختزنه في اللاوعي، دون أن نعيه. نرى لمدة ثانية، مجموعة من الفتيات الفاتنات، المثيرات، يحطن بشاب، يمنحن أنفسهن له، دون رادع. وخلال جزء من ثانية نرى الشاب يدخّن سيجارة «كنت».

ما هي دلالة ذلك؟

إن الإعلان قد خاطب اللاوعي، وقد كان حذراً، في أن يمنع المشاهد من أن يتأمّل الإعلان بوضوح. إذ، لو فعل ذلك، لأدرك المشاهد سخافة الرباط السببي بين تدخين سيجارة الكنت، وإعجاب الفتيات. اللاوعي وحده هو الذي يستطيع أن يقبل علاقة سببية مضحكة كهذه.

أما الكيفية التي تقبل بها اللاوعي هذه العلاقة ــ بين التدخين وإقبال